عرفت الجزائر نهاية القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر بداية الهجرات الأندلسية إليها، فرارًا من بطش محاكم التفتيش الإسبانية التي فرضت عليهم سياسة التنصير الإجباري و الرحيل، بدأت المأساة المورسكية، فكانت نداءات الإستغاثة بمراسلات مسلمي غرناطة للسلطات العثمانية، و كانت الدولة العثمانية أهم الدول التي في إمكانها تقديم يد المساعدة لهؤلاء، أمّا دول المغرب الإسلامي خاصة الجزائر لم يكن بوسعها تقدي يد المساعدة لإنشغالها بالصراعات الداخلية التي كانت تتخبط فيها و الهجومات الإسبانية المتتالية على شواطئها، و كان لظهور الأخوين خير الدين و عروج أثره في تقديم المساعدة لهؤلاء المهاجرين الأندلسيين؛ حيث تمّ نقلهم إلى المدن الساحلية، و تزويد ثوراهم بما يحتاجون إليه من أسلحة و بمساعدة البحرية الجزائري التي نقلتهم بأمان، فتوزعوا على المدن الساحلية، ثمّ عبروا إلى المناطق الأخرى، واجهتهم صعوبات في المناطق التي هاجروا إليها، إلاّ أنهم إتخذوها مواطن إستقرارهم.

الوضع العام في المغرب الأوسط

أ ــ الوضع السياسي

عرف المغرب الأوسط خلال القرن الثالث عشر ميلادي إستقرارًا سياسيا أثناء حكم الموحدين، الذين تمكنوا من التصدي بكل قوة للغزاة الطامعين في السيطرة على أراضيها، فإكتسبوا هيبة دولية حافظوا من خلالها على ممتلكاتهم، و لم تلبث دولة الموحدين إلى أن إنقسمت على نفسها إلى ثلاث إمارات ظلت تتقاسم السيادة على منطقة المغرب الإسلامي، و تسعى كل منها مد نفوذها على حساب جاراتها.[1]

و هذه الإمارات الثلاث:

ــ الحفصين بتونس (1229 م ــ 1536 م، 627 هـ ــ 943 هـ).

ــ الزيانيين بالجزائر (1235 م ــ 1554 م، 662هـ ــ 796 هـ).

ــ بالمغرب الأقصى (1229 م ــ 1393 م، 668 هـ ــ 796 هـ).

ساد هذه الإمارات تطاحن و نزاعات مسمترة، و إمارة الزيانيين هي الأضعف لتواجدها بين مطامع الحفصين في الشرق و المرينيين في الغرب، و سعت كل من هاتين الإمارتين للقضاء عليها و التوسع على حسابها[2]، و رغم أنّ الزيانيين قد تمكنوا من الحفاظ على ملكهم لمدة ثلاث قرون فقد ظلّ عرشهم مهددا من قبل المرينيين، كما ظهر صراع بين أبناء الأسرة الواحدة ما نتج عنه بالضرر على الإمارة في كل المجالات، و تعدى إلى إضعاف السلطة المركزية لديها ممّا أدّى إلى بروز نوع من الفسيفساء السياسية.[3]

---

1 ــ **عبد الرحمان الجيلاني**، تاريخ الجزائر العام، ط4، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ج3، ص 44.

2 ــ **الحسن الوزان**، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي و محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، الرباط، 1983، ج2، ص 48.

3 ــ **جون ب. وولف**، الجزائر و أوروبا، تر و تع: أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر، 2007، ص 66.

كما أدّى هذا الصراع إلى تلاشي نفوذ بني زيان و إنحصار ملكهم في تلمسان [1] و غربي البلاد، و ظلّ ملكهم في تهديد دائم من طرف الأجانب، و قد إنقسمت الإمارة على نفسها إلى عدة إمارات؛ إذ إستقل بنو جلاب بتقرت (1414 ــ 1854) و أقاموا إمارة بقيادة الحاج سليمان الجيلاني، و تمكن بفضل المساعدة التي تلقاها من شيوخ الزوايا من فرض نفوذه فيما بعد على الإقليم الزابي.

و ظلت هذه الإمارة قائمة مستغلة الفراغ السياسي طيلة القرن الرابع عشر و بداية القرن الخامس عشر.[2]

كما كانت سواحل المغرب الأوسط تعيش حالة الإنفصال و الإستقلال القبلي حيث إنفصلت بجاية[3] عن السلطة الحفصية في بداية القرن الخامس عشر، إلاّ أن النزاع القائم حولها لأهميتها أنهك قواها، ممّا أدى إلى سقوط بجاية بيد الإسبان سنة 1510.

و كانت مدينة الجزائر تابعة رسميا لبني زيان متمتعة ببعض الإستقلال، و ظلت مدينة جيجل[4] إمارة مستقلة،[5] أما مدينة القل كانت مستقلة عن ولاة قسنطينة[6]، و سلطان تونس، إذ تعتبر منفذ بحري و تجاري إلى جانب سكيكدة التي شهدت صراع بين

---

1 ــ **تلمسان:** مدينة جزائرية تقع في سفح جبل تلمسان القريبة من الحدود المغربية لجهة غرب الجزائر.
للمزيد أنظر: تاريخ الجزائر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص ص 262، 263.

2 ــ **أحمد توفيق المدني،** حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1492 ــ 1792)، دار البصائر، الجزائر، ص 83.

3 ــ **بجاية:** مدينة عريقة تاريخية جزائرية، أسسها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري ق 5هـ، و تسمى الناصرية.

4 ــ **جيجل:** مدينة ساحلية تقع في الشرق الجزائري، سميت جيجل بالفينيقية " شاطئ الدوامة "، و هناك من قال أنّها أمازيغية تعني ربوة أي سلاسل جبلية، أسست في القرن 06 قبل الميلاد.

5 ــ **مولاي بلحمسي،** الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979، ص 55.

6 ــ **قسنطينة:** تسمى مدينة الجسور المعلقة، تتميز بمدينة مبنية على صخرة من الكلس القاسي، ينسب تأسيسها إلى التجار الفينيقيين، و كان إسمها القديم أقرتا، و يعني القربة أو المدينة، إشتهرت بإسم سيرتا بعد قدوم النوميديين و إتخذوها عاصمتهم. للمزيد إطلع على: معجم البلدان.

أطراف العائلة الحفصية و القبائل المستقرة في المغرب الأوسط، عكس عنابة [1] التي ظلت تحت سيطرة الحفصيين إلى غاية تسليمها من قبل هؤلاء إلى الملك شارل الخامس Charle V ، أمّا وهران فكانت تحت سلطة بني زيان الضعيفة، مستقلة في شؤونها الإدارية و المالية بإستثناء شؤون الضرائب و شؤون الميناء التي كانت تخضع للسلطة المركزية إلى غاية سقوطها تحت الإحتلال الإسباني سنة 1509 م.[2]

لقد كان تدخل الإسبان في المغرب الإسلامي إمتدادا للحرب مع المسلمين، تلك الحرب التي أُطلق عليها إسم حرب الإسترداد La Reconquesta في إطار الحروب الصليبية التي تدفعها الكنيسة، 3 أعطيت لها صبغة دينية لضمان الحماس الشعبي، فقرر الإسبان مطاردة المسلمين إلى ما وراء حدود إسبانيا، و محاربة مسلمي شمال إفريقيا بقرار من الملكين إيزابيلا Izabila و فرديناند Ferdinand، و بمباركة البابا ألكسندر السادس Le Père Alexandre VI،[4] الذي حثّ على مواصلة الحرب الصليبية ضد إفريقيا الإسلامية، بقرار يقضي بدفع الضريبة للدعم المالي لمساعدة و تمويل الملكين الكاثوليكيين لمشاريع الحملة الصليبية لتسهيل القضاء على المسلمين في شمال إفريقيا [5] و لعب بذلك رجال الدين الإسبان دورًا بارزا في هذه المعركة، حيث إعتبرت الكنيسة

1 ــ **عنابة:** كانت تسمى بونة، تقع شمال شرق الجزائر، أسست على يد الفينيقيين ق 12 قبل الميلاد، سمّاها العرب عنابة نسبة إلى أشجار العناب.

2 ــ **محمد بن عمر طمار**، تلمسان عبر العصور ــ دورها في سياسة و حضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 217.

3 ــ **كورين شوفالييه**، الثلاثون سنة الأولى لقيام مدينة الجزائر (1510ــ 1541)، تر: جمال حمايدية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 19.

4 ــ **ألكسندر السادس:** تولى منصب البابوية خلال 1492 ــ 1504، هو من فرض ضريبة الصليب على المسيحيين، و ذلك لتجهيز الحملات الصليبية ضد المسلمين، و قد إشتهر بتقسيمه لمناطق النفوذ في العالم بين إسبانيا و البرتغال. للمزيد أنظر: **كليل صالح**، جهود خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لإحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير، جامعة العقيد لخضر، باتنة، 2006ــ 2007، ص 17.

5 ــ **نبيل رضوان عبد الحي**، جهود العثمانيين في إنقاذ الأندلس و إسترداده مطلع العصر الحديث، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، د.ت، ص 29.

أنّ هذه المعركة خاصة بها، و بعد سقوط غرناطة بدأت الملكة في إعداد مشروع لإحتلال البلدان المغربية، غير أنّ الموت لم يتركها لتكمل حملتها، و كانت وصيتها ضرورة مواصلة هذا المشروع جاء فيها: « **أنّه لا ينبغي إيقاف غزوا إفريقيا ولا إنهاء الصراع ضد الكفار المسلمين من أجل العقيدة**».[1]

فبعد طرد المسلمين من إسبانيا توجهت حملات لملاحقتهم بالمغرب الإسلامي فإزداد غضبهم حين ثار المسلمين في غرناطة، و هجم البحارة المسلمين على السواحل الإسبانية بمساعدة الأندلسيون المطرودين، أو المهاجرين من الأندلس.[2]

في الوقت الذي كانت إسبانيا تعيش نشوة الإنتصار على المسلمين، و تعمل على توسيع حدودها إلى ما وراء البحر و إمتلاك قواعد جديدة للقضاء على أي محاولة يقوم بها المسلمون لإسترجاع دولتهم في إسبانيا.[3]

و كان الصراع و الفوضى قد سادا المغرب الأوسط و إزداد الصراع بين الكيانات السياسية الصغيرة الموجودة آنذاك، أدّى ذلك إلى زعزعة النظام و إنعدام الأمن و الإستقرار.[4]

و بدأت إسبانيا بإنزال حملاتها على سواحل المغرب الأوسط، فبعد أن إحتلت ميناء المرسى الكبير[5] 1505 م ثم أخذ نطاق العمليات العسكرية يتسع منذ 1508 م حيث تولى قيادة الأساطيل الملكية بدرونا فاروا Pedro Navarua [6] ، و الذي تمكن من إحتلال وهران سنة 1510 م و بجاية 1510 م، و تحت هذا الضغط الإسباني

1 ــ **كليل صالح**، مرجع سابق، ص 18.

2 ــ **مبارك الميلي**، تاريخ الجزائر الحديث و القديم، مكتبة النهضة الحضارية، الجزائر، د.ت، ج3، ص 53.

3 ــ **أحمد توفيق المدني**، المرجع السابق، ص 71.

4 - **De Grammont (H.D)**, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroua, Editeur, Paris, 1887, P38.

5 ــ **المرسى الكبير:** أسسها سلاطين البحر الأبيض المتوسط على مسافة بضعة أيام من وهران.

6 ــ لعب بدرو نافارا Pedro Navara دورًا هاما في الإحتلال الإسباني لشواطئ تونس و الجزائر، طرابلس، كان بحارًا مغامرًا، ولد في سكاي، جلبه فرديناند الخامس و رقاه إلى رتبة النبلاء و كان أول حاكم لوهران إبتداءًا من سنة 1515. للمزيد أنظر: **كليل صالح**، جهود خير الدين ...، المرجع السابق، ص 10.

إضطرت موانئ دلس[1] و الجزائر إلى دفع الجزية إلى إسبانيا، لأنّ الزيانيين أثبتوا عجزهم في حماية هذه الموانئ نتيجة للتفكك السياسي الذي أصاب دولتهم، و إضطرت السلطة الزيانية إلى عقد الصلح مع إسبانيا سنة 1512 م، و إعترفت فيه بإستيلاء إسبانيا على عدة موانئ في غرب المغرب الأوسط.[2]

في الوقت الذي شهدت فيه الهجمات الإسبانية على المغرب الإسلامي عامة و المغرب الأوسط خاصة، ضمن مشروع إنتهازي يهدف إلى إحتلال المنطقة كلها ظهر على مسرح الأحداث الأخوة باربا روس[3]، الذين لعبوا دورًا حاسمًا في توجيه سير التاريخ لمنطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط، فبظهورهم شهدت منطقة المغرب الإسلامي تطورات متسارعة تمخض عنها ميلاد الدولة الجزائرية، و التي فرضت نفسها كقوة جديدة مؤثرة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط طيلة ثلاث قرون.

و قد سطع نجم الإخوة بربا روس بفضل الإنتصارات التي حققوها ضد النصارى، فلم تأت سنة 1510 م حتى ذاع صيت شهرتهم في الشرق و الغرب، مما جعل سكان المغرب الإسلامي يرون في هؤلاء القوة الإسلامية الصاعدة القادرة على التصدي للعدوان الإسباني الذي كان يهددهم، فقاما بحملات ضد الإسبان و حرّرا عددا من الموانئ، و تمكنا من إعادة الوحدة لبلاد المغرب الأوسط، و وقفوا كصمام أمان في وجه التحرشات الإسبانية و الأوروبية عامة، إذ إستطاعوا تحرير مدن عديدة و ربطوا الجزائر بالدولة العثمانية في الوقت الذي إنتهى الحكم الإسلامي بالأندلس و إنتهاج

1 ــ **دلس:** تقع بين مدينة الجزائر و بجاية، هي مدينة ساحلية أنشأها القرطاجيون.

2 ــ **يحي بوعزيز**، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و مماليك أوروبا 1500 ــ 1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص ص 11، 12.

3 ــ **الإخوة بربروس:** إختلف المؤرخون في تحديد أصل الإخوة بربروس، لكن المتفق عليه أنّهم ولدوا في منطقة المتليلي بالجزر اليونانية، من أب يشتغل في صناعة الخزف، و هو عروج، خير الدين، إسحاق، الياس. للمزيد أنظر: **عزيز سامح التر**، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص 27.

الإسبان سياسة متابعة حركة الإسترداد ببلاد المغرب، و تعقب المهاجرين الأندلسيين بها، فكانت الدولة العثمانية في هذه الفترة هي الأقدر على الدفاع عن البلاد الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط في ظل تغير موازين القوى الكبرى.[1]

ب ــ الوضع الإجتماعي:

يتكون المجتمع الزياني من قبيلة بني عبد الواد[2] بني راشد و مغراوة، و توجين و بنو يفرن إضافة إلى بعض الأقليات اليهودية الموجودة منذ القدم، كانوا يشتغلون بالفلاحة و الصناعة و التجارة، يتبعون المذهب السني المالكي و الصوفي ، و يتمتعون بثقافة و أخلاق حسنة، و كانوا يهتمون كثيرا بالأعياد الدينية و خاصة المولد النبوي الشريف الذي تقام من أجله حفلات كبيرة يشارك فيها الأمراء و عامة الشعب[3] و ينقسم سكان تلمسان إلى أربع طبقات؛ صناع، تجار و طلبة و جنود، و تجارها رجال شرفاء في معاملتهم، و يعملون جاهدين لجعل مدينتهم جيدة للتموين و هم أغنياء جدًا[4]، و يقول عنهم إبن خلدون في كتابه الشهير " بغية الرواد" : « **ناس أخيار أولي أحياء و وقار، و وفاء بالعهد و عفاف و دين، و إقتصاد في المعاش و اللباس و السكن على هدي السلف الصالح** »[5]، و كان المجتمع الجزائري مطلع القرن 10هـ، 16 م مجتمعا ريفيا لأنّ سكان المدن كانوا قليلين، و في مطلع القرن المذكور إضطر كثير منهم إلى الفرار من المدن التي إحتلها الإسبان، أو كانت مهددة بالإحتلال

---

1 - De Garmmont, Op Cit, 38.

2 ــ في تسمية عبد الواد يرجع هذا الإسم إلى جدهم عبد الواد، الذي كان يتعبد في واد. للمزيد أنظر: **عبد القادر نور الدين**، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر إلى إنتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص 45. أنظر أيضا: **بن خلدون**، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تق: عبد الحميد حاجيات، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 186.

3 ــ **عمار عمورة**، موجز في تاريخ الجزائر، ط1، ريحانة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2002، ص 86.

4 ــ **عبد الفتاح مقلد التميمي**، موسوعة المغرب العربي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، مجلد 03، ج 05، ص 174.

5 ــ **أحمد توفيق المدني**، كتاب الجزائر، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2010، ص 124.

كما حدث لسكان بجاية و وهران الذين نجو من القتال و الأسر و عاش هؤلاء السكان في جو من الإضطراب و عدم الإستقرار السياسي، و إنعدام الأمن و سوء المعيشة، بل و حتى المجاعة، فمنهم من خضع للأمر الواقع، و منهم من هجروا مناطقهم نتيجة أوضاهم المزرية.[1]

و قد تميزت الأوضاع الإجتماعية في المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر بالتردي و التدهور نتيجة عدة عوامل أهمها:

ــ التفكك الداخلي و الغزو الخارجي؛ نتج عنها حالة اللأمن و عدم الإستقرار، فهجر السكان نحو الجهات الداخلية بحثا عن الأمن و الإستقرار تاركين أملاكهم و منازلهم أدّى بالمدن الداخلية كتلمسان و قسنطينة إلى أن تعيش إكتضاضا سكانيا بسبب نزوح الفارسين إليها، نفس الوضعية في بجاية.[2]

ــ تعرض قطاع المدن الذي كان أصلا قد تعرض إلى الغزو و التخريب، و فقدان الأهمية، مما زاد في تقليص نسبة السكان الحضر و زاد بالمقابل في نسبة سكان البدو و الرحل[3]، بالرغم من إستقبال المدن الساحلية على الخصوص و بعض المدن الداخلية لأعداد كبيرة من المهاجرين الأندلسيين عززوا نسبة سكان المدن.

ج ــ الوضع الثقافي:

1 ــ **صباح بعارسية**، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ، 16م، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005 ــ 2006، ص ص 26، 27.

2 ــ **سفيان نوال. يوسف شريفة**، الحياة الإجتماعية و الثقافية أواخر العهد العثماني، مذكرة تخرج، جامعة الجزائر، 2008، ص 32.

3 ــ **عبد القادر حليمي**، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830، ط 1، المطبعة المغربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص ص 207، 208.

إشتهرت الدولة عبد الواد الزيانية بإعتناء ملوكها بالعلم و العلماء؛ فلقد كان التعليم منتشرا في المدن و القرى، حيث كانت تقام الدروس في المسجد الأعظم بتلمسان و المدارس المتخصصة[1]، و لإنعاش الحركة العلمية سيد أبو حمو موسى الأول [2] أول مدرسة بالمغرب الأوسط بتلمسان، و من بعده أسس أبو تاشفين المدرسة التاشفينية بالقرب من المسجد الأعظم.

و لعل المكانة الرائدة التي كانت تتمتع بها مدينة تلمسان ترجع بالدرجة الأولى إلى النزعة العلمية و الثقافية، التي كان يتميز بها بعض سلاطين و أمراء بني زيان الذين كانت لهم إرادة قوية و رغبة شديدة و جهود مستمرة، إمتازوا بها لأنّ من بينهم من كان ينتمي إليه فكان منهم الفقيه و الشاعر و الأديب و الفنان، مثل السلطان أبا تاشفين الأول المولع بالفن و العمرات و الأمير أبي حفص، و الشيخ الفقيه أبي سليمان داود علي كبير بني عبد الواد، و شيخ دولتهم، و كان أبو حمو موسى الثاني شاعرًا و كاتبًا.[3]

و كان هؤلاء الأمراء و السلاطين و غيرهم يشجعون العلماء على الإجتهاد في الدرس و تحرير الإفكار من الركود، و تنشيط الحركة الفكرية بالعاصمة الزيانية [4] و لاسيما في عهد أبي حمو موسى الثاني، و إتصال التلمسانيين المباشر بالأندلسيين و كان هناك تشجيع للعلماء و الفقهاء و مر التعليم في العهد الزياني بثلاث مراحل:

---

1 ــ عن الدور الذي لعبته في الميدان الثقافي و نشاط علمائها أنظر: أبو القاسم **سعد الله**، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 58.

2 ــ **أبو حمو موسى الأول:** هو السلطان أبو حمو بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان، و لد سنة 665 هــ، 1266م بتلمسان يوم وفاة أخيه إبي زيان الأول، أغتيل سنة 718 هــ، 1318م. للمزيد أنظر: **خالد بلعربي**، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، دراسة تاريخية و حضارية 633 هــ ــ 681 هــ، 1235 م ــ 1282م، ط1، المكتبة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص 79.

3 ــ **عمار عمورة**، المرجع السابق، ص 86.

4 ــ **عبد العزيز فيلالي**، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج2، ص 320.

1ــ عند بلوغ الطفل سن السابعة يتم تحفيظه القرآن الكريم، و بعض المتون من الأحاديث النبوية و قواعد اللغة و علم الحساب.

2 ــ ثم ينتقل بعدها إلى المساجد و المدارس التي شيدت في مدينة تلمسان و يكون الطلبة فيها أحرار في إختيار المواد التي يدرسونها و غير مقيدين ببرنامج دراسي.

3 ــ يتدرج الطلبة إلى مرحلة الشيوخوخة و يتولى فيها شيوخ متطلعون و ذوو كفاءات عالية بارزة نذكر منهم الشيخ إسحاق إبراهيم التنسي و أبي عبد الله محمد الشريف التلمساني، و غيرهم.[1]

و على يد هؤلاء يتلقى الطلبة دروسهم فينتقل إليهم الطلبة من مختلف الأقطار و البقاع للسماع إليهم، و قد قامت الدولة بتخصيص الرواتب و الأجور و المدرسين و العاملين في المدارس و لم يستثني ذلك حتى الطلبة؛ حيث تكفلت بإعانة الطلبة ماديًا مع الحرص على تحمل نفقاتهم و مصاريفهم[2]، و أماكن الطلبة يستقرون فيها مدة مزاولتهم للعلم و لا يفكرون في أمر ملبس و لا مأكل بل يجدون كل ما تحتاج إليه حياتهم، مما يوجد به الأمراء الفضلاء و الأعيان[3]، و عمل المشرفون على إنشاء المكتبات على تقديم كل ما يحتاجه الناسخ كالأوراق و غيرها.[4]

و إهتم الزيانيون بتطوير عمران المدينة و التوسع فيه فشيدوا المساجد و المدارس و المنازل و القصور، و الأبراج و الحصون و الأصوار العالية، و زينوها بالبساتين و المتنزهات، و تأثروا في ذلك بالفن الإندلسي كقصر المشور بتلمسان، من أجمل القصور الإسلامية و أبهاها، فكان جديرًا بدولة عظيمة كدولة الزيانيين.

---

1 ــ **عمار عمورة**، المرجع السابق، ص 86.

2 ــ **نفسه**، ص 87.

3 ــ **عثمان الكعاك**، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الإحتلال الفرنسي، تقديم و مراجعة: أبو القاسم سعد الله و آخرون، ط 01، دار المغرب الإسلامي، لبنان، 2003، ص 262.

4 ــ **مختار حساني**، تاريخ الدولة الزيانية، ط 01، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ج 01، ص 245.

و من المباني الحضارية نجد المدرسة التاشفينية التي تقع إلى جانب المسجد الأعظم و هي في منتهى الروعة و الجمال.

و ظهرت الموسيقى الأندلسية بها مع الهجرات الأولى للأندلسيين، و كان الزيانيون يحتفلون في قاعات القصر بالأعياد الدينية، و لاسيما بالمولد النبوي الشريف بإبتهاج، كما هو جار به العمل بفاس في عهد بني مرين، و لا يفارق السلطان الحفل حتى يوزع وابلا من الهدايا و المال على من أحيوا الحفل البهيج بطربهم و نظمهم.[1]

كما برز في تلمسان العديد من العلماء في مختلف أصناف العلوم فنذكر على سبيل المثال في مجال العلوم الدينية العالم أبو عبد الله المرزوق، و أبو بكر بن الخطاب. أما في مدينة بجاية فقط كانت تعتبر من بين المراكز الهامة التي إنتشرت بها مختلف أنواع العلوم، نتيجة لما أولاه الحكام الحفصيون بإهتمام للعلم و تقريب العلماء من مجالسهم، فأصبحت بذلك مقصد و مَحَجْ طلاب العلم من مختلف المناطق.[2]

إلاّ أنّ هذه النهضة الفكرية و الثقافية قد عرفت في أواخر القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر، تأثرًا بالأوضاع السياسية التي عرفتها منطقة المغرب الأوسط، و لعل أهم الأسباب التي أدّت إلى هذه الوضعية الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية و المناطق الداخلية القريبة، ممّا أدّى إلى غلق المراكز التعليمية و هجرة علماءها و طلابها بحثا عن الأمن و الإستقرار في المناطق الداخلية البعيد أو خارج الجزائر.[3]

و منه لقد عاش المغرب الأوسط فترة تاريخية ميزها عدم الإستقرار السياسي الذي عرقل النشاط الإقتصادي و الإجتماعي، و تراجعت العلوم و المعارف في وقت

1 ــ **مختار حساني**، المرجع السابق، ص ص 276، 277.

2 ــ **عبد القادر حليمي**، المرجع السابق، ص 210.

3 ــ **أبو القاسم سعد الله**، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 65.

شهدت فيه أوروبا نهضة علمية و إقتصادية كبرى، و تزايد الثروة، ما نتج عنه إختلال موازين القوى بين ضفتي المتوسط [1] مما دفع الدول الأوروبية و في مقدمتها إسبانيا إلى الخروج من أراضيها و إستعمار أراضي جديدة و كانت الأقرب بلاد المغرب الإسلامي ككل، و كان ظهور الأتراك في شمال إفريقيا نجدة إنقذت بلاد المغرب العربي من مصير الإحتلال.

د ــ الوضع الإقتصادي

شكلت الزراعة أهم نشاط إقتصادي مارسه سكان المغرب الأوسط و نتيجة لموقعها و طبيعة أراضيها، فقط كانت الزراعة أهم مصادر الدخل، و تأتي زراعة القمح في طليعة المنتوجات الفلاحية، ثم تليها زراعة الزيتون.[2]

و إهتم الزيانيون بالصناعات المختلفة من نسيج و ورق و معادن و نحاس و صناعة الفخار و نحت الرخام، فعمها الرخام في معظم الفترات، و تعددت الصناعة بها، و أصبح لكل حرفة سوقها الخاص و إشتهرت تلمسان بالمنتوجات، فعرف قماش بالتلمساني و هو صوف خالص و حرير خالص.[3] و كانت الفلاحة بهذه المملكة أهم منابع الثروة، و نتيجة تربية المواشي إزدهرت الحياة التجارية و كانت تتم عن طريق البر، و البحر إلى أوروبا و الأندلس و الدول الإفريقية؛ مثل السودان و المشرق العربي، يصدرون و يستوردون، و كانت البضائع تدخل إلى تلمسان بحرًا عن طريق ميناء هنين[4] الموجود قرب بني صاف، و أواخر العهد الزياني بسبب إنعدام الأمن

---

1 ــ **عمار عمورة**، المرجع السابق، ص 88.

2 ــ **مبارك الميلي**، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، دار المغرب الإسلامي، لبنان، 2007، ج2، ص ص 483، 484.

3 ــ **عمار عمورة**، المرجع السابق، ص 85.

4 ــ **ميناء هنين:** ميناء تلمسان المشهور، يقع شمال ندرومة على بعد 35 كلم، و غرب مصب نهر التافنة، و لم يبق إلاّ بعض الأطلال، و نسبت مكانه حاليا مدينة صغيرة تحمل إسم هنين. للمزيد أنظر: **محمد بن عبد التنسي**،

و الإستقرار بسبب الغارات الإسبانية على سواحل الجزائر، و إنعدام الأمن في الريف بسبب الأعراب الذين عاشوا فسادا ممّا أدّى إلى ركود الزراعة و تدهور الصناعة و الحرف، و تذبذب التجارة بسبب تردي الأوضاع السياسية و التضامن مع السلطة.[1]

الدعم العثماني لإنقاذ الأندلسيين

نتيجة تطور المسألة المورسكية و تضييق الخناق على المسلمين لتنصيرهم و لترحيلهم عن أراضيهم، لجأ المسملون ــ المورسكيون ــ إلى القيام بثورات في أغلب المدن الإسبانية، خاصة غرناطة و بلنسبة، إلاّ أنها أخمدت و كان على المسلمين أن يرموا بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق و المغرب لإنجادهم، و بسبب إكتساب الدولة العثمانية لوزن سياسي و عسكري كبيرين نتيجة توسعاتها في أوروبا الشرقية، وجه أهالي غرناطة سفارة إلى إستنبول في منتصف سنة 882 هــ، 1477م من أجل لفت إنتباه السلطان العثماني محمد الفاتح[2] إلى حالة المسلمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم[3]، غير أنّه كان في حكم الإستحالة للإستجابة لإستغاثتهم لإنشغاله بالفتح في أوروبا.

و جُدّدت رسائل الإستنجاد إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني [4]، الذي كان يعاني من مشاكل تمنعه من إرسال مساعدات ــ خاصة مشكلة النزاع على العرش ــ، إلاّ أنّه

تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف نظم الدر و العصيان في بني شرف بني زيان، تحق: محمد بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، المكتبة الوطنية، الجزائر، 2010، ص 122.

1 ــ **صباح بعارسية**، المرجع السابق، ص ص 23، 24.

2 ــ **محمد الفاتح:** هو سابع السلاطين العثمانيين، ولد 833هــ،1429م، سمي بالفاتح نسبة إلى فتحه للقسطنطينية و سماها إستنبول أي دار الإسلام. للمزيد أنظر: **عزيز سامح التر**، المرجع السابق، ص 160.

3 ــ **عبد الجليل التميمي**، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، المجلة التاريخية المغربية، عدد3، 1975، ص 39.

4 ــ **بايزيد الثاني:** ولد سنة 851هــ، تولى الحكم سنة 866 هــ، 1471 من السلاطين العثمانيين، و هو بن السلطان محمد الفاتح ، توفي و عمره 35 سنة. للمزيد أنظر: **محمد فريد بك**، تاريخ الدولة العثمانية العلية، تق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981، ص 172.

حاول تقديم المساعدة بتعاونه مع السلطان المملوكي الأشرف بتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة، فأرسل السلطان بايزيد أسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الإسبانية بقيادة كمال رايس[1]، الذي غرس الرعب في الأساطيل المسيحية أواخر القرن 15 م و تمت نجدة الكثير من المسلمين، كما تم إرسال نداء إلى المغاربة، ذلك إنّهم أقرب البلدان إليهم، إلاّ أنّهم لم يحظوا بأي جواب فقد كان أهل المغرب في وضع سيء ضعيف متفكك، لا قدرة لهم على إستجابة النداء.[2]

و نتيجة هذا الوضع السيئ في المغرب العربي، تشجع ملك إسبانيا فرديناند Ferdinand I على غزو عدد كبير من المراكز على السواحل المغربية، لمواصلة نطاق محاربة الإسلام حتى أرض إفريقيا. و مع بداية القرن 16 م وفي وسط هذه الظروف ظهر الإخوان عروج[3] و خير الدين[4] الذي لعبوا دورًا مهما في تعجيل الأحداث السياسية بالمغرب العربي خلال العهد الثاني من القرن 16 م، و كانت حملاتهم في البحر المتوسط و على السواحل الإسبانية لغرض مساعدة المورسكيين و كذلك الجزائريين الذين طلبوا منها النجدة.[5]

---

1 ــ **محمد رايس:** هو اللواء كمال الدين بك بن قرة مانلي علي، مات أثناء عودته من حملة إسبانيا بالقرب من قاعدة غالي بولي 1511، و قد قاد عدة حملات لنصرة مسلمي الأندلس، و أنقذ العديد من المهاجرين المسلمين. للمزيد أنظر: **محمود السيد غنيم**، أضواء على البحرية الإسلامية العثمانية، منشورات إتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1994، ص 55.

2 ــ **مختار حساني**، موسوعة تاريخ و ثقافة المدن الجزائري مدن الغرب، د.ط، دار الحكمة، ج4، ص 256.

3 ــ **عروج باربا روس:** ولد سنة 869 هــ، 1466م، قائد عثماني و مجاهد بحري، إستشهد في تلمسان. أنظر: **عزيز سامح التر**، المرجع السابق، ص 27.

4 ــ **خير الدين باربا روس:** ولد سنة 871 هــ، 1466م، مجاهد بحري و قائد الأساطيل العثمانية، إسمه الأصلي خضر بن يعقوب، يلقبه الأوروبيين ببرباروس أي ذو اللحية الحمراء، إشغل الأخوين في الجهاد البحري لخدمة السلطان الحفصي بتونس، حيث عملا على أسر مراكب المسيحيين التجارية، و أخذ كافة ما بها من الضائع و بيع ركابها و ملاحيها بصفة رقيق، و في ذات يوم أرسلا إلى السلطان سليم إحدى المراكب المأسورة إظهارًا لخضوعهما لسلطانه، فأرسل لهما عشرين سفينة؛ فتح خير الدين شرشال بإقليم الجزائر و لم أصبحت الجزائر عثمانية، أصبح خير الدين أول حاكم بها (1518م ــ 1534م). للمزيد أنظر: **محمد فريد بك**، المرجع السابق، ص ص 27 ــ 28.

5 - Haedo De Deigo, Histoir des Rois d'Alger, Traduit par De Garmmont (Henri Selmas), Bouchine Coll Saint Seins, Paris, 1998, P 155.

حيث عان المغرب العربي في نفس الفترة التي إمتدت فيها إنتصارات العثمانيين في البلقان و المشرق العربي من هزات عنيفة أصابته في الأندلس، إذ كان سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين نقطة تحول خطيرة في تاريخ هذا الإقليم الإسلامي. إذ تطور الإضطهاد المسيحي للمسلمين في الأندلس و زادت قسوته، حيث سلطت عليهم أقصى العقوبات إذ لوحظ عليهم بعض التعلق بدينهم ... إستمرت تلك المحنة سنوات طويلة، و توالت هجرات الأندلسيين إلى بلاد المغرب العربي و المشرق الإسلامي ناقلة معها أول الأمر علمها و فنها و أدبها... و ناقلة في آخر الأمر بؤسها و شقائها.

تتبعت الحكومة الإسبانية المورسكيين في مهجرهم الجديد في الشمال الإفريقي و ذلك خوفا من تلقيهم مساعدات حربية من إخوانهم في الدين سكان شمال إفريقيا و من ثمّ يعملون على الإنتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم، لذلك قام الإسبان بالنزول إلى السواحل الإفريقية الشمالية للإنتقام من مراسيها، و إصطبغت حروبهم بصبغة الحروب الصليبية[1]، و لقد كان شمال إفريقية جوهرة ثمينة تهفوا إليها إسبانيا عبر البحار، غير أنّها إستبدلته بنوع آخر من الحرب التقليدية بعد أن حقق الإسبان نجاحا باهرا في مشروع أكثر روعة ألا و هو الإنتشار في عالم جديد.[2]

إنّ النجاح السريع الذي عرفته الدولة العثمانية في كل من أوروبا و آسيا و إفريقيا و مدى الإنتصارات الحربية التي حققها السلاطين العثمانيين على الجيوش الأوربية المتحالفة آنذاك و سقوط عدد من العواصم الأوروبية قد دفع بالمجاهدين الجزائريين و على رأسهم خير الدين بربروس إلى التفكير بضرورة ضم الجزائر إلى

1 ــ **أحمد توفيق المدني**، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 81.

2 ــ **جون ب وولف**، المرجع السابق، ص 48.

الدولة العثمانية، و أن تكون جزءا من أراضيها [1] المترامية الأطراف، فكتبوا إلى السلطان العثماني يعرضون عليه رغبتهم تلك، و لم يتأخر كثيرا جواب السلطان فقد أعلم خير الدين و أهل الجزائر بقبول رغبتهم، و أنّه قرر أن يشمل الجزائر برعايته و تكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية و إسترداد الأندلس و منح خير الدين لقب بايلرباي[2]، و بذلك قام نظام بيلربايات في الجزائر 1518، كان ذلك نتيجة إدراك الدولة لأهمية الجزائر لإسترداد الأندلس، لأنّ هذا النظام كان يقوم عادة في أطراف الدولة التي يراد التقدم منها لفتح إجراء تالية.[3]

أخذ خير الدين في الإستعداد لمواجهة الخطر المسيحي و صار بذلك الحارس الأمامي للدولة العثمانية في غرب المتوسط، فكان مجيء العثمانيين إلى شمال إفريقيا نجدة أنقذت البلاد من الغزو و الإستعمار الأوربي، و عملت على توحيد البلاد سياسيا و قد رحبت معظم طبقات السكان بمجيء العثمانيين ماعدا أصحاب النفوذ الإقتصادي و السياسي، و بعض الولاة و القواد، الذين ظهر لديهم خوف من أن يفقدوا مصالحهم السياسية و الإقتصادية، و كان ميل العثمانيين مع رجال الدين و العامة قد أضرّ بمصالح بعض الأمراء و الولاة و القياد الكبار[4]، فكان هذا الموقف سببا في ثورة بعض هؤلاء الأعيان، في أنّ سياسة العثمانيين لم تكن هي حكم البلاد المباشر بل الحكم بواسطة أهل البلاد أنفسهم.

إنّ المظهر الجهادي للوجود العثماني في الجزائر ثم إستمرار التهديد الأجنبي قد طبعا الحكم العثماني بالحذر الدائم من الخارج، و كان لهذا أثره على الحياة العامة

---

1 ــ **محمد فريد بك**، المرجع السابق، ص 95.

2 ــ **بيلرباي:** أمير الأمراء أعلى منصب في الدولة العثمانية. أنظر: **محمد فريد بك**، نفس المرجع، ص 95.

3 ــ نفسه، ص 95.

4 ــ مثل مؤامرة سالم التومي الذي أدرك أن عروج قد أبعد الخطر الإسباني عنه فبدأ يحاول إسترجاع سلطته، و إستغله الإسبان الذين كانوا عاملا قويا في جعل شيخ المدينة يحاول اللعب على الحبلين، خاصة و أنّ الإسبان قد تعهدوا له بحماية عرشه مقابل الولاء، فسخط الجزائريون عليه. للمزيد أنظر: **خليل صالح**، المرجع السابق، ص 22.

فرغم تصفية الوجود الإسباني من مدينة الجزائر و جيجل و عنابة و مستغانم [1]، و دلس فإنّه ظل قائما في وهران و المرسى الكبير؛ إذ عمل الإسبان على تدعيم وجودهم هناك بالتحصينات و العد و العدة.[2]

إنّ الوجود العثماني في الشمال الإفريقي كان مواصلة لفكرة الجهاد ضد المسيحية، فإنظم إليهم أهل شمال إفريقيا [3] و الأندلسين، فأخذ المسلمون في الأندلس يستنجدون الدولة العثمانية لمساعدتهم على الإسبان خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني[4]، حيث قام خير الدين بتضييق البحر على المسيحيين، و أخذ في إنقاذ المسلمين بالأندلس بأنْ حملهم على ظهر سفينته إلى الشمال الإفريقي بعد أن سمع أصوات الإستغاثة، فصار يجوب البحر على رأس سفنه حتى بلغ السواحل الإسبانية التي إلتجأ إليها المسلمون،[5] و لم يجرؤ أسطول إسبانيا على صده، فأخذ يحمل على سفنه أكبر عدد ممكن من أولئك المستضعفين، و كان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق الأرض الإسبانية لكي يحمل مكانهم عددًا من اللاجئين حتى إذا ما وصلوا إلى بر الأمان فوق ساحل الجزائر عاد إلى إسبانيا ليأتي بغيرهم، و كرّر ذلك عدّة مرات حتى أنقذ أعدادا كبيرة إشتد بهم ساعد المسلمين.

و بذلك فقد نجح خير الدين بفضل المساعدات العسكرية التي تلقاها من السلطان سليمان القانوني في إنشاء هيكل بيلربكية قوية في الجزائر رغم المؤامرات من الأعيان

---

1 ــ **مستغانم:** هي مدينة ساحلية تقع شمال غرب الجزائر.

2 ــ **أحمد توفيق المدني**، المرجع السابق، ص 83.

3 ــ **أبو القاسم سعد الله**، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الهجري إلى الرابع عشر ميلادي (16ــ 20)، ط1، الحركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1981، ج1، ص 53.

4 ــ **السلطان سليمان القانوني:** أحد سلاطين الدولة العثمانية ولد سنة 900 هــ، 1495 م، تولى الحكم سنة 926 هــ، 1520م، شهدت الدولة في عهده عصرها الذهبي، توفي سنة 974 هــ، 1566م. أنظر: **محمد فريد بك**، المرجع السابق، ص 198.

5 ــ **أحمد توفيق المدني**، هذه هي الجزائر، د.ط، مكتبة النهضة المصرية، د.م، د.ت، ص ص 21، 22.

المحلية، و في توجيه ضربات قوية على السواحل الإسبانية، فكانت جهوده مثمرة في إنقاذ الأندلسيين فقد قام سنة 932 هـ، 1521 م بتوجيه ستة و ثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لتقل 70 ألف مسلم.[1]

فإكتسب بذلك هيبة لدى الجزائريين و المورسكيين على حد سواء، و تلقى فرمانًا من السلطان سليمان القانوني يأمره بالتحول إلى إستانبول لإعادة النظر في وضع المورسكيين، و تقوية الوجود العثماني في البحر الأبيض المتوسط.[2]

كما لعب البيلرباي قلج علي[3] دورا هامًا خلال الصراع العثماني الإسباني إذ قدّم المساعدة للمورسكيين الذين كانوا يراسلونه و يحيطونه بالوضعية الحقيقية العامة للمورسكيين و نوع الإغاثات التي يحتاجون إليها للقيام بنشاط موحد، [4] و تلقى قلج علي فرمان سلطاني يُطلب منه تقديم المساعدة الممكنة إلى الأقلية المورسكية إلى حين وصول الإسطول العثماني 1570. و منه فإنّ دعم الدولة العثمانية للأندلوسيين عبر مراحله، كان له أثره العميق في منح المسلمين مناخًا جديدًا للمقاومة الشديدة ضد الإسبان، و أثر عظيم في تسريع هجرة الأندلسيين، و إعطائهم أملا في إسترجاع أندلسهم المفقود.

دور البحرية الجزائرية

و قد لعبت البحرية الجزائرية دورا مهما في إنقاذ الأندلسيين الفارين من إضطهاد محاكم التفتيش الإسبانية لهم، و إنتهاجها سياسة التنصير الإجباري 5، فساءت حالهم ممّا

---

1 ــ **محمد دراج**، مذكرات خير الدين بربروس، ط1، الأصالة للنشر، الجزائر، 2010، ص 158.

2 ــ نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 307.

3 ــ **قلج علي**: ولد في كالابريا، أسر في إحدى غزوات خير الدين باشا جنوب إيطاليا، و بعد إسلامه لقب بـــ أولوج علي، أصبح بيلرباي الجزائر سنة 1568م. للمزيد أنظر: **سامح التر**، المرجع السابق، ص 27.

4 - De Garmmont, Histoir d'Alger sous la Somination Turque (1515-1830), Op Cit, P 104.

5 ــ **ويليام سبنسر**، الجزائر في عهد رياس البحر، تعر: عبد القادر زبايدية، دار القصبة، الجزائر، 2006،

ممّا أدّى بهم إلى الهجرة، فقام خير الدين بنقل حوالي 70 ألف أندلسي بمشاركة مئات من المتطوعين الإنكشاريين بعد فشل ثورة البشران، كما قام كل البحارة المشهورين صالح رايس، إيدن رايس، درغوث رايس، حسن فنزيانوا، مراد رايد بنقل 600 أندلسي من بلنسية Valencin، و بذلك أظهر خير الدين مقدرة فائقة على مقاومة السفن الإسبانية في البحر الأبيض المتوسط.

كما قام قلج علي بإنقاذ المسلمين الفارين بمساعدة ثوار جبال البشارات، و تنظيم المعارك و قدم مساعداته بإمدادهم العتاد و الذخائر، مع ألف مقاتل من العسكر لحراسة المسملين على الشواطئ حتى عودة المراكب لنقلهم، و ذلك سنة 976هـ، 1568م.

و في سنة 1584 قام حسن فنزيانوا بنقل حوالي 2000 أندلسي من نواحي اليكانت[1].[2]

و لقد إستخدم البحارة الجزائريون أساليب محكمة في حرب العصابات و سفن متطورة قادرة على الإبحار في أعالي البحار، كما أنّ البحارة الجزائريين أظهروا كفاءتهم الحربية و مقدرتهم القتالية العالية، بروح قيادية و حمية الإسلام فحققوا إنتصارات ذاع صيتها نذكر منهم الأخوين بربروس، و درغوت باشا، صالح رايس .. و غيرهم.[3]

الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط

شكل المغرب الأوسط مستقطبا للهجرات الأندلسية التي ظلت تقصده و تطرق رحابه بلا إنقطاع، و قد تمت هذه الهجرات خلال عهود زمنية مختلفة لكل منها

ص 161.

1 ــ **اليكانت:** مدينة إسبانية شرق إسبانيا، و هي عاصمة مقاطعة بلنسية، عرفت بهذا الإسم أيام الحكم الإسلامي لها.

2 ــ **أحمد توفيق المدني**، حرب الثلاثمئة ...، المرجع السابق، ص 234.

3- Mollay Belhmissi, Histoire de la Marine algerienne (1515-1830), E N A L, Alger, 1986, P 34.

ظروفها و أسبابها الخاصة[1]، بداءً من عهد الرستميين الذين كانت تربطهم علاقات ودية مع الدولة الأموية في الأندلس، إذ كان الأندلسيون ينتجعون بعض سواحل المغرب الأوسط ثمّ إنفكّ هؤلاء إبتنوا حواضر بها و شرعوا في تعميرها كتنس [2] و وهران [3] و أقام بعضهم إقامة دائمة في حواضر أخرى و أهمها بجاية، حتى صارت في منتصف القرن 11م، عامرة بأهل الأندلس.[4]

لقد حدثت بعدئذ هجرات أندلسية متواصلة خاصة بعد إزدياد الحروب بين النصارى و المسلمين؛ أو نتيجة لوجود الحكام البربر إلى التشدد في إصلاح أحوال الأندلس، بعد ما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف عن ممالكهم، ممّا ترتب عنه أن قصد بعضهم إلى المغرب الأوسط، ثمّ إنتهج الموحدون سياسة المرابطين نفسها فإضطر بعض الأندلسيين إلى الإلتحاق بحواضر المغرب الأوسط [5] آنذاك طوعا و كرها.

و لما وقعت كارثة العقاب، إشتدت النكبة على الأندلسيين في دينهم و أرواحهم. الأمر الذي أجبر غالبيتهم على النزوح نحو بلاد المغرب الأوسط، فقد أمّت الجاليات

1 ــ عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة و هامة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة، إلاّ أنّ الوثائق المتعلقة بها و بالجالية الأندلسية المحدودة، و الموجودة منها ما يزال معظمه موزعا عبر مختلف أرشيفات دول البحر الأبيض المتوسط، التي لم تجمع بعد كلها، جعلت الدراسات المورسكية الأندلسية بالجزائر، تتأخر عن زميلاتها بتونس و المغرب. للمزيد أنظر: **نصر الدين سعيدوني**، الأندلسيون بمقاطعة الجزائر " دار السلطان" أثناء القرنين 16و 17، حوليات جامعة الجزائر، العدد 07، الجزائر، 1993، ص 107ــ129.

2 ــ **تنس:** و هي على مسافة خطوات من البحر الأبيض المتوسط و بها كثير من السكان، كانت دائما تابعة لسلاطين تلمسان.

3 ــ **البكري أبو عبيد الله**، المغرب في ذكر البلاد الإفريقية والمغرب، د.ط، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص 61.

4 ــ نفسه، ص 82.

5 ــ **أحمد توفيق المدني**، حرب الثلاثمئة...، المرجع السابق، ص 187.

الإشبيلية إفريقية على وجه الخصوص، و كانت بجاية من الحواضر الحفصية التي ألقت بها هذه الجموع الإشبيلية عصا الترحال.[1]

كان منهم خبرة ما أنجبت الأندلس من نخبة العلماء و فضائل الشعراء.

كما إستقبلت قسنطينة هي الأخرى جماعات هامة من الأندلسيين و إن لم توجد إشارات واضحة في المصادر المغربية تمثل نزوح هؤلاء إليها، غير ما ذكره الغبريين من أن أبو محمد عبد الله الحضرمي القرطبي ت (1239) الذي كان فقيها و كاتبا و أديبا و من الأشياخ المنتصبين للتدريس و الرواية، و قد توفي بقسنطينة، [2] لكن بالنظر إلى بروز سمعة قسنطينة الطيبة حضاريا و ثقافيا في سائر بلاد المغرب العربي، و تحديدا في القرنين 14 و 15 الميلاديين بعد العاصمة الحفصية، و هي تونس و بجاية، فمن المحتمل جدًا أنّه أوت إليها العائلات الأندلسية القادمة من إفريقية و بجاية و توطنت بها توطنا أبديًا.[3]

كما شهدت تلمسان بدورها هجرات أندلسية كثيفة، خاصة على عهد الزيانيين الذين كانوا يشجعون الأندلسيين على الإستيطان في أراضيهم.[4]

تدفقت بعدُ على المغرب الأوسط سيول هائلة من الموريسكيين لما نقض الملكين الكاثوليكيين بنود المعاهدة[5]، المبرمة بينهما و بين أبو عبد الله الأحمر، و راما الذكاية بهم، مما إضطر الآلاف منهم إلى الفرار بدينهم و النجاة بأرواحهم إلى الشواطئ

1 ــ **إبن خلدون عبد الرحمان**، ديوان العبر و المبتدأ و الخبر....، ط1، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1992، ج6، ص 385.

2 ــ **الغبريني أبو العباس عبد الله**، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحق: عادل نويهض، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1966، ص 325.

3 ــ **أبو القاسم سعد الله** ، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، د.ت، ج1، ص 170.

4 ــ **أحمد توفيق المدني**، حرب الثلاثمئة سنة...، المرجع السابق، ص 187.

5 ــ أبرمت سنة 1492م، معاهدة بين العرب و المسلمين و الملكين الكاثولوكيين؛ نصت على حوالي سبعة و ستين بندا ليتم بموجبها إحترام حرية المسلمين الدينية و المدنية، غير أنّ النصارى نكثوها. أنظر: **النفح**، ج4، ص ص 525، 526.

المغربية التي كانت أقرب منطقة يلتمسون فيها الأمان، و قد إستقبلت بعض حواضر المغرب الأوسط عددًا هائلا من هؤلاء.[1]

و إشتدت الهجرة الأندلسية في القرن 16 م نحو بلاد المغرب الأوسط بع أن تمادى حكام إسبانيا في التنكيل بالمورسكيين[2]، أما عن أسباب تخير المغرب الأوسط تحديدا، فمردّه إلى توافر أسباب و ظروف عدة ساعدت على إتخاذ مثل هذا القرار المصيري من ذلك صدور بعض الفتاوى التي توجب على الأندلسيين الإرتحال عن ديار الكفر إلى ديار الإسلام، و أبرزها الرسالة التي ألقها أحمد الونشريسي ق (1508) « ..... **المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر و ما يترتب عليه من العقوبات و الزواجر**».[3]

كما كان المورسكيين يتتبعون بإهتمام النجاح الذي حققه الأتراك العثمانيون في الجزائر، التي أصبحت يومئذ حصنا منيعا يلتجئ إليه هؤلاء، خاصة بعد ما هاجم الأسطول الجزائري السواحل الإسبانية و تمكن من السيطرة على جبل طارق سنة 1540 م لنقل حوالي ألفين و خمسمائة مهاجر موريسكي إلى سواحل الجزائر بأمان سنة 1544 م[4]، و الأهم من ذلك أنّ إيالة الجزائر هي الإيالة العثمانية الوحيدة التي وقفت بكل ثقلها مع الثورة الأندلسية الكبرى 1568 م[5]، و أمدتها بالأسلحة و الرجال

1 ــ **الحسن الوزان**، وصف إفريقيا، المصدر السابق، ص ص 58، 59.

2 ــ **لوي كارديناك**، المورسكيون الأندلسيون و المسيحيون، المجابهة الجدلية (1492ــ1640)، تر: عبد الجليل التميمي، ط2، منشورات مركز الدراسات و البحوث العثمانية و المورسكية و التوثيق و المعلومات، زعوان، 1989، ص 108.

3 ــ **أحمد الونشريسي**، المعيار و الجامع المعرف في فتاوي إفريقية و المغرب، إشراف: محمد حجي، بيروت، 1981، ج2، ص ص 121، 122.

4 ــ **أحمد توفيق المدني**، حرب الثلاثمئة ...، المرجع السابق، ص 396.

5 ــ أصدر ملك إسبانيا فيليب الثاني (ت 1598) مراسيم مجحفة في حق المورسكيين كانت سببا في إندلاع الثورة الأندلسية الكبرى سنة 1568م. للمزيد أنظر: **حومد أسعد**، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1980، ص 180.

فنتيجة لهذا التواشيح العميق بين الجزائريين و المورسكيين كان المغرب الأوسط من شرقه إلى غربه مقصد الوفود المهاجرة و محط رحالهم.[1]

فقط إستقطبت مدينة الجزائر لوحدها طوائف عظيمة من المورسكيين يبدو ذلك جليا من خلال التقارير السرية الواردة منها إلى إسبانيا و التي كشفت عن إستيطان سبعة أو ثمانية آلاف من المهاجرين الأندلسيين عام 1609م،[2] حتى أصبح عدد الأندلسيون بمدينة الجزائر عام 1609 م وحدها يناهز خمسة و عشرون ألف [3] و أضحت الهجرة الأندلسية ظاهرة عامة تأثرت بها أغلب الجهات الساحلية.

و لعل أهم الهجرات الأندلسية التي شهدتها الجزائر، تلك الهجرة الجماعية إثر قرار الطر النهائي الذي أصدره الملك فيليب الثالث فيما بين سنتي 1609 م ــ 1614م فبعد صدور مرسوم نفي مسلمي بلنسية Valencin بتاريخ 28 سبتمبر 1609م تم ترحيل 28 ألف موريسكي إلى ميناء دانية و 15 ألف أخرى إلى ميناء بلنسية Valencin ، و قد حملتهم السفن الإسبانية على نفقاتها الخاصة، [4] إلى وهران التي أختضنت حوالي 12 ألف، لكنها لم تستطع إيواء هذا العدد الضخم فنزل فريق منهم إلى تلمسان.[5]

1 ــ أنظر: النفح، ج7، ص 527.

2 ــ **أحمد توفيق المدني**، المرجع السابق، ص 278.

3 ــ ذكر فيليب سفير فرنسا أنّه " يوجد بمدينة الجزائر خمسة عشر ألف ممن يحسنون إستعمال الأسلحة النارية، من بينهم عشرة آلاف رجل من المسلمين الذين نزحوا من إسبانيا .... و هم خيرة الجنود". أنظر: **محمد زروق**، الأندلسيون و هجراتهم إلى بلاد المغرب خلال القرنين (16م، 17م)، ط3، إفريقيا الشرق، 1998، ص 85.

4 ــ **نصر الدين سعيدوني**، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985، ص 44.

5 ــ أنظر: النفح، ج4، ص 528.

كما عرفت بعض المدن الجزائرية وفود أندلسية كشرشال [1] التي عمرت بهم تمامًا[2] إضافة إلى مستغانم، تنس، تلس، القليعة[3]، بجاية، جيجل و عنابة .... على أنّ إستيطان هؤلاء لم يقتصر على المدن الساحلية فقط بل تعدى إلى المدن المتاخمة كالبليدة، المدية مليانة، و إقليم متيجة... و عمومًا فإنّهم يؤثرون السكن في الحواضر دون سواهما من البيئات لرسوخ طبيعة التمدن و التحضر فيهم[4]، و لعدم إستيعاب المدن لهذه الحشود إضطر الحكام لتحويل قسم منهم إلى الأرياف المجاورة.

و تعرض المهاجرون الأندلسيون في بداية إنتقالهم إلى الجزائر إلى مأساة ثانية؛ حيث أغارت عليهم قبائل المنطقة حيث يقول المقرى التلمساني « **فخرجت ألوف بفاس و ألوف بتلمسان و وهران ... فسلط عليهم الأعراب و من لا يخشى الله تعالى في الطرقات و نهبوا أموالهم و هذا ببلاد تلمسان و فاس، و نجا القليل من هذه المعرة** ».[5]

و أشار أبو راس الناصري أنّ قبيلة هبرة أساؤوا للأندلوسين فقتلوا بعضهم و فتحوا بطونهم؛ إنّهم يخفون بها الجواهر[6]، و كان السلطان العثماني قد أرسل رسالة إلى باشا الجزائر حسن بن خير الدين يطلب منه الإحسان لهؤلاء الأندلسين.

---

1 ــ **شرشال:** تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط و لها صور شديد الإرتفاع و يظهر فيها بجوار البحر جامع كبير، و كان مأهولة بالسكان و لكن عمّرها الغرناطيون بعد سقوط دولتهم 1452م.

2 ــ **نصر الدين سعيدوني**، المرجع السابق، ص 45.

3 ــ **القليعة:** هي مدينة تقع غرب الجزائر العاصمة بـــ 30 كم، تعد من المورسكية نسبت سنة 1550 م، من طرف الأندلسيين و الغرناطيين، أسسها حسن بن خير الدين بربا روس.

4 ــ **بن خلدون**، ديوان العبر، المصدر السابق، ص 375. أنظر أيضا: **محمد حسن العيدروس**، العصر الأندلسي، خروج العرب من الأندلس، ط1، دار كتاب الحديث، د.م، 2012، ص 30 ــ 160.

5 ــ **آخر بني سراج**، الإسلام في الأندلس، تر: شكيب أرسلان، دار الحياة، بيروت، 1985، ص 129.

6 ــ **أحمد المقري**، المرجع السابق، ص 528.

و لم يمانع حكام الجزائر بتشجيع بعض الأندلسيين للعودة إلى وطنهم بهدف الجوسسة و إثارة إخوانهم المدجنين[1] ضد الحكم الإسباني، و في هذا الإطار من النشاط السري سارع مورسكيو بلنسية Valencin إلى إخبار إخوانهم بالجزائر بإستعداد للقيام بحملة بحرية ضد الجزائر سنة 1601م[2]

1 ــ **المدجنين:** كان هذا الإسم يطلق على الأندلسيين القادمين من مملكة غرناطة و ما جاورها (إقليم الأندلس بجنوب إسبانيا)، و قد شكل خير الدين منهم فرقة مسلحة بالأقواس، بقيت حتى أواخر القرن 16 و أوائل القرن 17 . إرجع إلى: Hoédo, Topographie, Op Cti, P 54.

2 ــ **نصر الدين سعيدوني**، المرجع السابق، ص 136.

لقد كانت الهجرة الأندلسية نتاج للإضطهاد الإسباني للمسلمين بالأندلس، الذي كان إمتداد للحروب الصليبية، و بسقوط غرناطة آخر حواضر الأندلس، لم يكن هناك سوى شد الرحال صوب المغرب العربي خاصة الجزائر، فأنير نجم الدولة العثمانية في مساعدتهم، حيث كانت في أوج قوتها، فقدمت مساعداتها من خلال إرسال قادة البحرية العثمانية التي عملت على الدفاع عن سفن المهاجرين و وقف هجمات المسيحيين على إساطيلهم.

كما لمعت من أسماء رجال البحر المسلمين في القرن 16 م أسماء مثل بابا عروج و أخيه خير الدين و قلج على و حسن فنزيانوا.

و إستقر المهاجرون الأندلسيون بالمدن و الأقاليم الجزائرية و إعتبروا إقامتهم بالجزائر إقامة مؤقتة على أمل إسترجاع الأندلس لكن ملاحقة الإسبان لهم حال دون ذلك، فأصبحت الجزائر وطنهم و دافعوا عنه بالغالي و النفيس طوال صراعه لمدة ثلاث قرون مع إسبانيا.